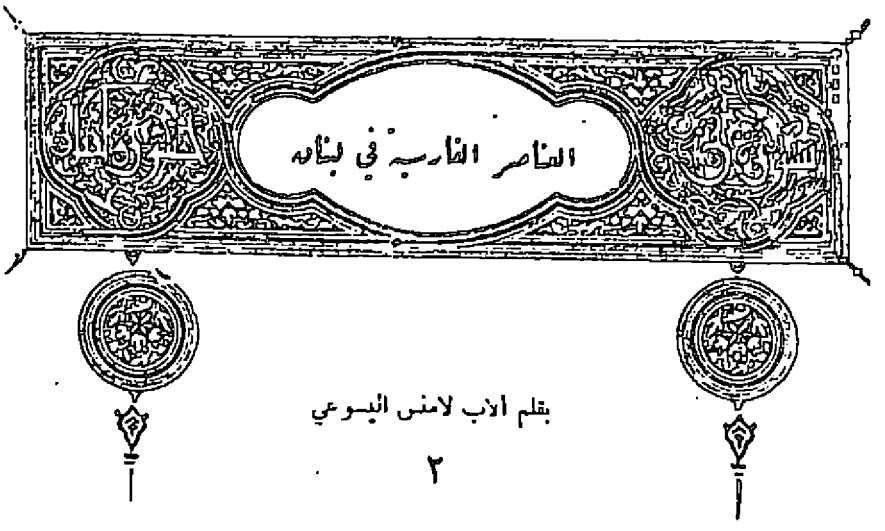

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

(تتمة)

وهناك مشكل آخر يعترض الباحث في الشعوب اللبنانية قد لا يقلّ صعوبةً عمّا تقدّم ، وهو اصل المتاولة المستوطنين هذه البلاد. فان المستشرقين لا يزالون يتجادلون في اصلهم ومصدرهم تجادلهم في شرح اسمهم واشتقاقه . فيزعم فون اوپنهيم (Von Oppenheim) انهم من بقايا جماعات القرامطة الاقدمين الذين نزلوا سورية فتركوا احفادهم فيها[1] . اما كازانوڤا (Paul Casanova) فينسبهم الى الاسماعيليين[2] . وهما رأيان مرجوحان تتأكد ضعفها اذا ما انتبهنا لما اختص به القرامطة والاسماعيليون من انهم ينتسبون الى بدع تكتنف معتقداتها الاسرار والغوامض فلا يمكن الوصول اليها الّا بالترقي في درجات متتابعة ، وانهم يقفون في سلسلة ائمتهم عند الامام السابع ، بينما نرى الشيعيين الإماميين ، او المتاولة ، يصلون الى الامام الثاني عشر . ولهذا يدعوهم الناس ايضاً « بالاثني عشرية ».

وقد لاحظ البعض ما يوجد بين معتقدات المتاولة ومعتقدات الشيعيين الفرس من الاتفاق التامّ ، فظنوا ان اصل الشيعيين واحد جارين على اثر الرحالة سيتزن (Seetzen) الذي جعل المتاولة يأتون من بلاد فارس[3] .

(١ Von Oppenheim, *Von Mittelmeer zum Persischen Golf*, I, 132, note 2.

(٢ *Revue d'Egypte*, I, 443

(٣ المجلد الاول من رحلته ، ص ٢٤٣

واننا نرى شيئاً من ذلك في كتاب تاريخ الاعيان لطنوس الشدياق . فانه في ترجمته لمشايخ الحمادية يزعم انهم جاؤوا البلاد مع قومهم من ناحية بُخارى[1] . وكذلك زَعم الدكتور لورته (Dr Lortet) ، فانه اكتشف مشابهات مهمة بين المتاولة والاكراد الساكنين مناطق العراق العليا ، فرأى انه «يمكن التأكيد بجرأة ان المتاولة اكراد اتوا من نواحي الحدود الفارسية في هجرة مهمة قد تكون حدثت في القرن الثالث عشر .»[2]

على انني اميل لورته مستقياً رأيه في هذا الامر من ارنست رينان ، متوسعاً اكثر من الممكن في فكرة سنحت لمؤلف «البعثة الفنيقية» فذكرها عرضاً . وذلك ان رينان ، في ذكرياته عن بلاد بشاره او الجليل الاعلى ، يؤكد انه صادف «عائلة او عائلتين عرف فيها ذاك العنصر الايراني (الكردي) المجيد الذي نقله صلاح الدين .»[3] وقد تحققت انا ايضاً وجود تقليد مشابه لهذا تتداوله بعض الأسر المتوالية الكبيرة في بلاد الجليل ، فيكون رينان قد تناوله من هذا المحيط على الغالب . ومما يشير الى هذا الزعم ايضاً نصّ نشره كريستي[4] (Christie) وهو باللغة العربية العامية الجارية في بلاد الجليل العليا . ومقالة نشرها «البشير» بتاريخ ١٧ تشرين الاول ١٩٠٤ ، في وصف مأتم احد بكوات النبطية ، يقول فيها المكاتب ان البك المذكور من سلالة صلاح الدين .

وكنت انا ذاتي قد رأيت هذا الرأي في ما مضى[5] . على انني اقرّ اليوم انه يظهر مرجوحاً لكونه لا يعتبر الوثائق السابقة عصر الصليبيين ، كنصوص

---

١) طنوس الشدياق : اخبار الاعيان ، بيروت ١٨٥٩ ، ص ١٦٦

٢) Dr Lortet, *la Syrie d'aujourd'hui*, p. 116

٣) Renan, *Mission de Phénicie*, 633, n. 1

٤) Cf. *ZDPV*, XXIV, 69 ; 109

— وينتج من بعض المعلومات المأخوذة عن مشايخ المتاولة في اللبوة ، ناحية بعلبك ، ان المتاولة عربيو الاصل ، ما عدا متاولة بلاد بشاره فانهم من اصل كردي .

٥) راجع Lammens, *Sur la frontière nord de la Terre Promise*, pp. 6 et 40 [extrait de la revue *Les Etudes*, 20 Févr. et 5 Mars 1899]

ناصري خسرو[1] والمقدسي[2]، الناتج منها انه كان من الشيعيين مَن يسكنون اذ ذاك منطقة طرابلس، وناحية الجليل الشمالية. فضلًا عن ان من ينسبون الى صلاح الدين اسكان المتاولة في سورية ينسون ان القائد الكردي المذكور، الذي لاشى الخلافة الفاطمية، ظهر في حياته واعماله كلها عدوّ الشيعيين اللدود ومجدّد مجد السنّة. بيد ان كريستي، من غير ان ينسب ادخالهم سورية الى صلاح الدين، يميل الى الاعتقاد بان «اصلهم من الشرق»[3]، مستندًا الى ما يبدو في كلام متاولة الجليل من آثار اللفظ الفارسي. ولكن هذه الخصائص اللفظية يمكن شرحها على طريق أبسط. وذلك انه لا يخفى ان علماء المتاولة او مجتهديهم عمادوا كثيرًا، في عهد الدولة الصفوية، على استدراج الفرس الى المعتقدات الشيعية[4]. فكان لهم مع تلك البلاد المداخلات الكثيرة. ولا يزال علماؤهم حتى اليوم يذهبون من سورية الى العراق وبلاد العجم حيث يكملون علومهم العالية وينالون شهاداتهم من المدارس الشيعية العليا في تلك البلاد. وكذلك لا يندر ان يجري عقود زواجية بين الأسر المتوالية الكبيرة والاسر الفارسية والعراقية. وعليه يكون من السهل ان تشرح آثار اللفظ الفارسي في كلام المتاولة بهذه المواصلات الدائمة.

ولكن ألا يمكن الاخذ بنظرية الاصل الفارسي او العراقي بان تنسب المتاولة الى الجماعات الفارسية التي جلاها معاوية الى لبنان، كما قدّمنا في القسم الاول؟ لقد حلنا هذا الامر في ما مضى[5] اذ تحققنا وجود الشيعيين في المناطق

---

١) اطلب *Relation du voyage de Nassiri Khosrau*, trad. Schefer, Paris 1881, p. 42,47

٢) اطلب جغرافية المقدسي (طبعة de Goeje) ص ١٧٩

٣) راجع *Z D P V*, XXIV, 109

٤) راجع Strothmoun, *Shi'a* [Encyclop. de l'Islam, p. 369] . — وقد ذكر فيها محمدًا العاملي الجزيني والصواب الجزّيني. نسبةً الى جزّين وهي القرية المعروفة في لبنان الجنوبي، شرقي صيدا، التي كانت في القرن الثامن للهجرة مركزًا متواليًا مهمًا فكان فيها مدرسة اخرجت عددًا من العلماء (راجع في ذلك مجلة المجمع العلمي العربي، سنة ١٩٢٩، ص ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٥٤) اما اليوم فان سكانها جميعهم من المسيحيين.

٥) راجع: تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار، الطبعة الاولى، ٢: ٤٥

التي ذكر المقدسي اقامة «الفرس» فيها . ثم ان ناصري خسرو يؤكد ان سكان طرابلس كانوا ، في زمانه ، من الشيعيين[١] . وكذلك يدلنا التاريخ على انه ، قبيل الحملات الصليبية ، كان امراء طرابلس من بني عمّار يؤمنون بعقائد الامامية . وحتى القرن الثالث عشر كان المشايخ الحمادية المتاولة يبسطون حكمهم على منطقة جبيل ، حيث لا يزال اهل شيعتهم يسكنون الى اليوم بعض المناطق الجبلية مع ناحية المرمل . وهناك مدينة بعلبك وضواحيها ولا يزال للمتاولة فيها مراكز مهمة . وكذلك نرى جماعات من المتاولة في ضواحي بيروت ، حيث كان عددهم كبيراً في ما مضى كما يذكر صالح بن يحيى[٢] ، وكما يستدلّ من انهم على عهد المماليك نالوا اعترافاً رسمياً باقامتهم في بيروت . اما ما خصّ منطقة صيدا المعروفة اليوم بجبل عامل (وفي الماضي بجبل عاملة) مع ما يتصل بها ضمن الحدود الفلسطينية ، فانها كانت منذ عهد المقدسي[٤] ولا تزال في عصرنا ، اهم مركز للمتاولة في البلاد السورية.

على ان هناك اسباباً وجيهة تدفعنا اليوم الى التردّد في اقرار الرأي الاول ، فتمنعنا عن نسبة الشيعيين المنتشرين في سورية الى الطوارئ الفارسية القديمة التي اقامها معاوية في هذه البلاد . من ذلك انه في زمن معاوية لم تكن الشيعة قد كوّنت بدعة دينية مستقلة كما نراها بعد ذلك . بل كانت حزباً سياسياً يجمع رجال علي وآله من المطالبين بحق الخلافة ضدّ الامويين . ثم ان انشاء هذا الحزب العلوي وقيادته يعود الى العرب لا الى الفرس كما يزعم بعض المستشرقين. فان العرب، اذ ذاك، لم يكونوا يعتبرون الفرس حتى المسلمين منهم ، الّا موالي ليس غير ، عليهم ان يسمعوا للعرب فيعملوا بمقرّراتهم دون ان يتدخلوا بشؤونهم السياسية . يؤيد ذلك اننا اذا ما عرضنا جميع الزعماء والقوّاد من المدافعين عن «آل البيت» والمتفانين في خدمتهم ، في تلك الحقبة ، لا نرى الّا العرب

و ٤٦ — واطلب ايضاً : *Les Nosairis dans le Liban* [extrait de la revue *l'Orient chrétien*, VII, 1902], p. 26.

٢) Relation du voyage de Nassiri Khosrau, p. 42.

٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت (طبعة الاب شيخو) الطبعة الاولى ، ص ٢٢١

٤) المقدسي : الكتاب المذكور ، ص ١٧٩

الخلّص كالمقداد ، والاشتر ، وابي ذرّ ، وعمّار ومن على شاكلتهم ممن يكثر ورود اسمائهم في الاساطير العلوية. امّا اذا شئنا ان نضيف اليهم زميلًا فارسياً ، مهما كلّف الامر ، فاننا لا نرى الّا المدعو سلمان الفارسي[1] . وهو عبد معتق لا نعرف عنه شيئاً يستحق الذكر ، هذا ان لم يكن قد اخترعه رجال الشيعة من العراقيين . واني لأوافق ، في هـذا الأمر ، الاستاذ يوسف هوروڤيتز (Horovitz) على حكمه البصير اذ قال : « هل وُجد عبد يسمّى سلمان دان بالاسلام في المدينة ؟ اننا لا نستطيع ان نبرهن عن ذلك، ولكننا لا نرى شيئاً يعاكس هذا الزعم . »[2] ثم لا يخفى ان شعراء الحزب العلوي ، في المئة والخمسين السنة الاولى للاسلام ، امثال كُثيّر ، والكميت ، والسيد الحميري ، كانوا جميعهم من العرب الاقحاح المتعصّبين لاصلهم العربي السامي المعاكسين للشعوبية وخاصة للفرس منهم .

ومن المعلوم ان « الحمراء » الذين جلاهم معاوية الى سورية ، كانوا قد اشترطوا قبل اسلامهم[3] الّا يُدخلوا في الحروب . والمنازعات السياسية بين الأعراب . فكانوا لا يهتمّون بهذه الانقسامات الاهلية ، حتى انهم ، قبل تركهم العراق ، لم يميلوا لا الى علي ولا الى اعدائه . والّا أفترى معاوية ، وهو مَن عرفناه بالدهاء السياسي ، ينقل الالوف من رجال علي ، وكلهم متمرّنون على الحروب اذ كانوا سابقاً من العساكر المأجورة ، فيفتح لهم ابواب سورية التي عمل فيها بكل ما أوتيه من مقدرة ادارية ودهاء سياسي حتى وحّد النزعات حول الخلافة الاموية واوجد الاخلاص الفطري للاسرة المالكة ؟

ولنذكر الآن حادثاً يدلّ ، اذا ثبت ، عن انه كان في سورية رجال من « الحمراء » او الفرس قبل ان جلاهم معاوية اليها . وتفصيل الحادث انه في السنة ٣٦ للهجرة ، اثناء الحروب بين معاوية وعلي ، كان في احد سجون معاوية في سورية عربيّ متهم بالاشتراك في مقتل الخليفة عثمان ، فكان اذاً من الميل

---

١) راجع Lammens, *La Mecque à la veille de l'hégire*, p. 293-294.

٢) *Der Islam*, XII, 182

٣) البلاذري : الكتاب المذكور ، ١٦٢ و ٢٨٠ و ٣٧٦

العاوي . فاتفق ان هرب هـذا الأسير ، فلحقه احد حرّاسه وهو « رجل من الفرس » على قول الكندي[1] . ولما كان على مقربة منه اخذ الأسير يستعطفه مردّدًا انه حالف النبي تحت شجرة الحديبيّة . فما كان من الفارسي الّا ان اجابه بأن الاشجار كثيرة في البريّة ، ثم هجم عليه فقتله . فينتج ان هـذا الفارسي لم يكن يمتّ بشيء الى الشيعة ، بل هناك مجال للشكّ بانتمائه الى الاسلام ، وهو لا يتردّد في قتل رجل من اصحاب النبي .

وفضلًا عن كل ما تقدّم فان سورية ظلّت حتى اواخر القرن الثالث للهجرة تميل الى الامويين وتبغض الشيعيين كل البغض حتى ان من كان يأتيها من المحدّثين كانوا يؤوبون بالخسارة والفشل وبالاهانة احياناً ، اذا اخذوا في سرد الاحاديث الشيعية . من ذلك ما جرى سنة ٩١٥ للنسائي المشهور ، مؤلف السُنَن ، في جامع دمشق ، اذ هجم عليه اهـل المدينة وكادوا يقتلونه . وما كان له من ذنب الّا انه ألّف كتاباً في « فضـائل علي » ، ورفض الاشادة بفضائل معاوية[2] في عاصمته القديمة . وكثيرًا ما كانت تبلغ الحماسة من اهـل سورية فيتجيّشون ويحملون اسلحتهم مستعدّين ، لا لاعادة الخلافة الى العلويين ، بل لتمهيد السبيل « للسفياني » ، بطلهم الوطني ، المزمع ان يعيد العرش الاموي ويرجع ذاك العصر الذهبي[3]

اما منذ القرن الرابع ، بعد ان جاهرت الشيعة بانفصالها عن السنة ، فاننا نتحقق في سورية وجود عدد كبير من البـدع المنشقة عن الشيعة حتى اشدّها تطرّفاً كالنصيريّة ، والاسماعيلية ، والدروز ، والامامية . ولا يمكننا هنـا ان نبحث عن اسباب هذه الحركة الشيعية التي تظهر اشبه بردّ الفعل . على اننـا نرى انه كان من اللازم ان تسبق هذا العصر فتوافق ، على الاقـل ، سقوط

---

١) الكندي : ولاة مصر (طبعة Guest) ص ١٩ ، السطر الاخير . اما ابن الأثير : اسد الغابة ٣ : ٢١ ، السطر ٣ فذكر : « فارس منهم »

٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٦٧ – ٢٦٩

٣) راجع Lammens, *Le Sofiani, héros national des Arabes Syriens* [Bull. Institut. français d'orchéol. orientale, XXI, 131-144]

الخلافة الاموية ، لو كان في سورية مـا يعزّزها من الجماعات الفارسية الناقلين على عهد معاوية . ولما لم يكن شيء من هذا ، وجب ، في نظرنا ، الالتجاء الى غير هذه الاسباب في تعليل وجود الشيعيين في لبنان.

وبينا نحن ننتظر نتيجة ابحاث جديدة، لا نرى بأساً في الموافقة على ما قاله ايبرس (Ebers) وگوطه (Guthe) في الموضوع وهو : «من الممكن ان يكون المتاولة اعتزلوا عن سائر سكان لبنان وانتيلبنان بسبب معتقداتهم الخاصة. وانهم لا يمثلون قطعاً بقايا أمـة كبيرة»[1] اما رينان فيقول : «ان لبنان قبر عالم قديم قائم بذاته تلاشى برجاله واملاكه ... وما المتاولة والعرب ... فيه الّا من عهد حديث . »[2] ولا بأس ايضاً في قبول رأي رينان بشرط الّا نميّز بين المتاولة والعرب . فان جبل عاملة[3] ، المدعو اليوم جبل عامل ، والقـائم بين صيدا وصور حيث مركز المتـاولة المهم ، يأتي اسمه من بني عاملة[4] ، وهم قبيلة من جُذام . فيكون ان عقائد الشيعة الامامية اخذت ، بعد القرن الثالث الهجري ، تنتشر بين افراد بني عاملة الذين كانوا يسكنون بلاد الجليل على قول اليعقوبي[5] . وبكلمة اخرى يجب ان نعدّ بني عاملة من سلفاء متاولة لبنان.

---

١) *Palaestina im Bild und Wort*, II, 35.

٢) Renan, *Mission de Phénicie* 217.

٣) المقدسي : الكتاب المذكور ، ص ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٤

٤) راجع Lammens, *Califat de Yazid*, 273

٥) اليعقوبي : الكتاب المذكور ، ٢٢٧ ، السطر ٢